

القَصَصُ الدِّينِيُّ
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

لجَاهِلِ الثَّانِيَةِ

عبد الحميد جودة السحار

الجاهلية الثانية

١

نشأت الفُروسية وازدهرت في الأندلس ؛ وكان
الفارسُ يتحلّى بالتَّقوى ، والشَّجاعة ، ورِقَّة الخِلال ،
والقُوَّة ، وقرض الشعر ، والفصاحة ، والبراعة في
رُكوب الخيل ، واللَّعب بالسِّيف والرُّمح والقوس ؛
وقد بلغت أوج عظمتها ، في أيام المنصور بن أبى
عامر . وقد أخذت أوربة نظام الفروسية ، الذى
كان طابعَ العصور الوسطى ، عن العرب ؛ وصارت
الأندلس في عهد المنصور كعبة ، يقصدها فرسانُ
النصارى ليُبَارزوا فرسانَ المسلمين .

كانت السيِّدات يحضرن هذه المبارزات ، فكان
يشيع في هذه الحفلات المختلطة الرِّقَّة والطَّراوة ،

وإن كان ميدانها ساحة للدم والأهوال .

ومات المنصور ، وفرسان المسلمين في عودتهم
من غزوتهم الموفقة ، وعلم الإسلام خفاق ؛ فقام
بالأمر بعده ابنه عبد الملك المظفر ، فجرى على سنن
أبيه ، في الحجز على الخليفة هشام ، وفي غزو
أطراف الأندلس ، ليستتب الأمر للمسلمين .

ومرّت سبع سنوات كانت أعياداً على الأندلس ،
ومات بعدها عبد الملك وكانت تُسمى بالسابع ،
تشبيهاً بسابع العروس .

وقام بالأمر بعده أخوه عبد الرحمن ، وكانت أمه
بنت حنسو (سانكو) ملك نافاريا ، وقد تزوّجها
المنصور بعد أن غزا بلادها ؛ فشبّ عبد الرحمن
جريئاً على الدين ، ميّلاً إلى اللهو والعبث ، حتّى
أطلق عليه سانكو الصغير .

واستقلّ عبد الرحمن بالملك دون الخليفة المؤيد ،
وطلب من هشام أن يوليّه عهده ، فأجابّه وأحضر

لذلك الملاء من أهل الشورى ، وأهل الحل والعقد ،
فكان يوماً مشهوداً .

٢

خرج عبد الرحمن يغزو في الصيف في بلاد
الجلالة ، مُتَشَبِّهاً بأبيه وأخيه . وفي أثناء اشتغاله
بالحرب ، اجتمع الأمويون والقرشيون في قرطبة ،
وراحوا يتشاورون في أمرهم ، فنقموا على
عبد الرحمن ما فعل ، وأسفوا من خروج الأمر من
المضريّة إلى اليمنيّة ، وعقدوا العزم على أن يشوروا
على عبد الرحمن .

ووثبوا بصاحب الشرطة فقتلوه ، وخلعوا هشاماً
الخليفة ، الذي قضت على شخصيته أمه صباح ، يوم
فكرت في أن تُدير سياسة الأندلس من وراء ستار ؛
وبايعوا محمد بن أبي هشام بن عبد الجبار ابن أمير

المؤمنين الناصر ، ولقبوه المهدي بالله .

وطار الخبر إلى عبد الرحمن وهو في غزوته ،
فانفض عنه الناس ، ولم يبق معه إلا بعض جنده ،
ووجوه البربر ، فانطلقوا إلى قرطبة .

وعند أرباض المدينة ، انسل الجند ووجوه البربر ،
ولم يبق إلا عبد الرحمن وحده ، فقتل واحتز رأسه ،
وحمل إلى المهدي ، وبقتل عبد الرحمن ، ذهب
دولة العامريين .

ولحق رؤساء البربر وزناة بالمهدي ، الخليفة
الجديد ، ولكن الأمويين لم ينسوا لهم أنهم ظاهروا
المنصور وأبناءه ، فأبغضوهم ، وراحوا يؤلبون الناس
عليهم ، حتى إن العامة هجموا على دورهم ،
ونهبوا ما بها .

وشكوا أمرهم إلى المهدي ، فلم تنفع شكواهم ،
فعقدوا العزم على خلع المهدي .

اجتمع رؤساء البربر وزناة بهشام بن سليمان ،

ابن أمير المؤمنين الناصر ، وباعوه خليفة للمسلمين .
وقبل أن تتم مؤامرتهم ذاع خبرها ، فهاجم عليهم
الناس وأجلّوهم عن قرطبة ، وقبضوا على هشام
وأخيه أبي بكر ، وأحضروهما بين يدي المهدي ،
فضرب أعناقهما .

فرَّ سليمانُ ابنُ أخيهما ، واجتمعَ بالبربرِ خارجَ
 قرطبة ، فبايعوه ولقبوه المستعينَ بالله ، وانطلقوا به
 إلى طليطلة ، واستعانوا ابنَ أذفونش ، فأسرَعَ
 بالانضمام إليهم ، لا حُبًّا فيهم ، بل لأنَّه وجدَ
 الفرصةَ سانحةً للتخلصِ من العربِ جميعا .

انضمَّ جيشُ أذفونش إلى جيشِ البربرِ ، وسارتِ
 الجيوشُ إلى قرطبة ، والتحمتْ بجيوشِ المهديِّ ،
 ودارتْ معركةٌ رهيبَةٌ بينَ المسلمينَ والمسلمينَ ،
 سقطَ فيها قتلى عِشرون ألفاً من زهرةِ شبابِ
 الأندلسِ ، وانهزمَ المهديُّ ، ودخلَ المستعينُ قرطبةً ،
 سنةَ أربع مائةٍ من هجرةِ الرسولِ .

وذهب المهديُّ إلى طليطلة ، واستعان بابنِ
 أذفونش ، استعانَ بعدوِّه الذي حاربَه مع المستعينِ ،

فَزَحَفَ مَعَهُ إِلَى قُرْطُبَةَ ، وَهَزَمُوا الْمُسْتَعِينَ وَالْبَرَبَرِ
وَأَصْحَابَهُمْ ، وَدَخَلَ الْمَهْدِيُّ قُرْطُبَةَ ، وَمَلَكَهَا ثَانِيَةً .
وَتَفَرَّقَ الْمُسْتَعِينَ وَالْبَرَبَرُ فِي الْأَرْضِ ، يَنْهَبُونَ
وَلَا يُبْقُونَ عَلَى أَحَدٍ ، ثُمَّ ارْتَحَلُوا إِلَى الْجَزِيرَةِ
الْخَضِرَاءِ ، فَخَرَجَ الْمَهْدِيُّ وَحَلِيفُهُ ابْنُ أَذْفُونَشَ
لِقِتَالِهِمْ ، فَكُرُوا عَلَيْهِمْ وَانْهَزَمَ الْمَهْدِيُّ وَابْنُ أَذْفُونَشَ
وَمِنْ مَعَهُمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى ، وَدَخَلَ
الْمُسْتَعِينَ قُرْطُبَةَ ثَانِيَةً .

وَرَأَى الْمُسْتَعِينَ أَنَّ يَقْضَى عَلَى هَذِهِ الْفِتْنَةِ الْمُنْدَلِيعَةِ ،
الَّتِي تُهَدِّدُ بَقَاءَ الْإِسْلَامِ فِي الْأَنْدَلُسِ ، فَأَخْرَجَ
هَشَامًا ، الْخَلِيفَةَ الْقَدِيمَ ، الَّذِي حَجَرَ عَلَيْهِ الْمَنْصُورُ ؛
وَبَايَعَ لَهُ ، وَقَامَ بِأَمْرِ حِجَابَتِهِ .

وَقَتَلَ أَهْلَ الْقَصْرِ الْمَهْدِيَّ ، وَصَارَ هَشَامُ أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ . وَلَكِنَّ الْمُسْتَعِينَ لَمْ يُصْبِحْ حَاجِبَهُ وَرَئِيسَ
وُزَرَائِهِ ، بَلْ قَامَ وَاضِحَ الْعُمَرَى بِحِجَابَتِهِ .

وَرَأَى الْمُسْتَعِينَ أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ أَفْلَتَ مِنْ يَدِهِ ، فَبَعَثَ

إلى ابن أذفونش ، يطلب منه عونه في قتال هشام
وحاجبه واضح العمرى . وأراد هشام أن ينقض
تدبير المستعين ، فأرسل إلى ابن أذفونش يطلب منه
أن يكف عن مناصرة المستعين ، على أن يسلم إليه
حصون قشتالة وقلاعها ، التي كان المنصور قد
افتتحها من بلاده . ووافق ابن أذفونش ، وخرج
المسلمون من حصونهم وقلاعهم ، طائعين مختارين .
وعلم المستعين بذلك ، فأسرع إلى البربر أعداء
الأمويين ، وقلبهم على هشام ؛ فخرج جيش منهم
إلى قرطبة ، ودخلوها عنوة ونهبوها ؛ وتولى البربر
الأعمال ، واستقلوا بالبلاد .

٤

قُتِلَ هِشَامُ سِرًّا ، وَظَنَّ الْمُسْتَعِينُ أَنَّ قَدْ اسْتَحْكَمَ
أَمْرُهُ ؛ وَلَكِنَّ الْبَرَبْرَ وَالْعَبِيدَ اسْتَوْلَوْا عَلَى الْبِلَادِ ،

فتولّى باديسُ بنُ حُبوسَ أمرَ غرناطة ، والبرزاليُّ أمرَ
قرمونة ، واليفرنىُّ أمرَ رُنْدَة ، وخزدونُ فى شريش ،
وافترقَ شملُ الجماعةِ بالأندلس ، وصارَ الملكُ
طوائفَ فى آخرينَ من أهلِ الدولة ، مثلِ ابنِ عبادٍ
بأشبيلية ، وابنِ الأفطسِ ببطليوس ، وابنِ ذى النونِ
بطليطلة ، وابنِ عامرِ ببلنسية ، وابنِ هُودٍ
بسرْقسطة ، ومُجاهِدِ العامرى بدانية والجزائر .

وفقدَ عربُ الأندلسِ حماسةَ جدودِهِم ، التى
كانتِ الدافعَ الأوَّلَ للجهاد ، ولم يَعدَ عربُ
الأندلسِ يَهْدِدُونَ فرنسا ، بل استكانوا وصاروا
غَرَضًا لغاراتِ أوربة ، التى أَصَبَحَتْ كُلُّها تَدِينُ
بالدينِ المسيحى .

لقد انغمسَ عربُ الأندلسِ فى المَلذَّاتِ ، حتَّى
صَغُرَتْ أحلامُهُم ونَقَصَتْ عُقُولُهُم ، وصارتِ
نفوسُهُم وضيعة ، وبُعِدُوا مِنَ البأسِ والفُروسيةِ
والبَسالةِ ولقاءِ الرِّجالِ ، ومِرَاسِ الأنجادِ والأبطالِ .

وصار أهل فرنسا يشنون الغارات على سواحل
أسبانيا الإسلامية ، ويختطفون مراكبهم من كل
جهة ولا غياث لهم ولا ناصر ، فالملك فيهم حقير
ذليل ، والعالم لا هم له إلا جمع المال ، يسرق
ولا يشبع ، والتاجر فاجر ، والرعية استكانت للذل
والهوان .

ورث ملوك الطوائف ملك بنى أمية ، وشادوا
دولهم الصغيرة في المدن والثغور الأندلسية ، وراح
كلّ منهم يكيد للآخر ويحارب به ، فانقسم عرب
الأندلس شيعة وطوائف متنازعين متناحرين ، وراح
كلّ فريق يستعين في حرب الفريق الآخر بالنصارى
من أهل البلاد المحتلة ، فكان ذلك بدء توهين
الإسلام في الأندلس ، وخضد شوكته ، وارتفع
شأن الأسبانيين .

واشتد لهيب هذه العداوة الطائشة بين الإمارات
الشمالية ، التي استقر فيها بنو هود فيما بين بلنسية
وسرقسطة . كان المقتدر بن هود ، أمير سرقسطة ،
لا هم له إلا سحق أخيه المظفر ، أمير لاردة ،
فاستعان على حربيه بالنفاريين (البشكنس) حتى

ظَفَرَ بِهِ أَخِيرًا وَسَجَنَهُ .

وَتُوَفَّى الْمُقْتَدِرُ بَعْدَ أَنْ قَسَمَ مُلْكُهُ الصَّغِيرَ بَيْنَ
وَلَدَيْهِ ، فَخَصَّ الْمُؤْتَمَنَ بِسَرَقِشْطَةٍ وَأَعْمَالِهَا ، وَأَخَاهُ
الْمُنْدِرَ بِدَانِيَّةٍ وَطَرَطُوشَةَ وَلَارْدَةَ . وَدَبَّ الْخِلَافُ بَيْنَ
الْأَخَوَيْنِ ، وَانْدَلَعَ لَهَيْبُ الْحَرْبِ الْأَهْلِيَّةِ بَيْنَ
الْمُسْلِمِينَ ، فَاسْتَعَانَ الْمُنْدِرُ بِسَانَكُو مُلِكِ أَرْجُونَ ،
وَكَوْنَتِ بَرِشْلُونَةُ ؛ وَخَرَجَ نَفَرٌ مِنْ أَنْصَارِ الْمُظْفَرِ بْنِ
هُودٍ عَلَى الْمُؤْتَمَنِ ، نُصْرَةً لِأُمِيرِهِمْ ؛ وَاسْتَنْجَدَ الْمُظْفَرُ
فِي سَجْنِهِ بِمَلِكِ قَشْتَالَةِ ، فَأَرْسَلَ جِيوشَهُ لِقِتَالِ
الْمُؤْتَمَنِ ؛ وَلَكِنَّ الْمُظْفَرَ مَاتَ فِي سَجْنِهِ ، فَنَامَتِ الْفِتْنَةُ
إِلَى حِينٍ .

وَكَانَتْ بِلَنَسِيَّةَ فَرِيسَةَ الْاضْطِرَابِ وَالْفَوْضَى ،
فَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا حَفِيدُ الْمَنْصُورِ ، ثُمَّ خَلَفَهُ ابْنُهُ الْمُظْفَرُ ،
وَلَكِنْ صَهْرُهُ الْمَأْمُونُ بْنُ ذِي النُّونِ ، صَاحِبُ
طُلَيْطَلَةَ ، خَلَعَهُ وَأَسْرَهُ ، وَضَمَّ بِلَنَسِيَّةَ إِلَى أَعْمَالِ
طُلَيْطَلَةَ .

وكان القادرُ الذي جاء عقبَ وفاةِ المأمون ،
ضعيفا ، فخرجَ عليه حاكمُ بَلَنْسِيَّةَ أبو بكر
ابنُ عبدِ العزيز ، حفيدُ المنصور ، واستقلَّ بحكمِها ،
واحتَمَى بأذْفُونَش (أَلْفُونَسُو السَّادِس) ، وتعهدَ له
بجَزِيَّةٍ سنويَّةٍ ، ولكنَّ أذْفُونَشَ لم يقبل هذه الجزية ،
لأنَّ القادرَ اشترى منه بَلَنْسِيَّةَ بمالٍ وفير .

وراحَ أذْفُونَشُ يستنزِفُ أموالَ القادرِ ، حتى عجزَ
عن إمداده بما يطلب منه ، فأرسلَ له جيشًا حاصره
فِي طَلِيْطَلَة . ولَمَّا كان القادرُ خائِرَ العزيمة ، خاوى
الخزينة ، فقد نزلَ على شروطِ أذْفُونَشَ مُضْطَرًا ،
فَسَلَّمَهُ طَلِيْطَلَة ، على أن يفتحَ له أذْفُونَشُ بَلَنْسِيَّةَ ،
ويُسَلِّمَهُ مَقَالِيدَهَا .

ودخلَ أذْفُونَشُ طَلِيْطَلَة ، وبدخوله إليها ذهبتْ
دولة ذى النُّون ، وانهارَ حصنٌ من حصونِ الإسلامِ
فِي الأندلس .

تَلَفَتْ حَفِيدُ الْمَنْصُورِ ، صَاحِبُ بَلَنْسِيَّةَ ، عَنْ عَضْدٍ
يَجْتَمِي بِهِ ، فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ الْمُؤْتَمَنِ ، صَاحِبِ سَرَقُسْطَةَ ،
فَرَاخَ يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ ، وَيُرْسِلُ الرُّسُلَ ، وَكَانَتْ لَهُ ابْنَةٌ
جَمِيلَةٌ ، فَسَعَى حَتَّى زَوَّجَهَا مِنَ الْمُسْتَعِينِ بْنِ الْمُؤْتَمَنِ ،
وَكَانَتْ حَفَلَاتُ الزَّفَافِ آيَةً فِي الرُّوعَةِ وَالْبَذَخِ .

وَمَاتَ حَفِيدُ الْمَنْصُورِ ، فَدَبَّ الْخِلَافُ بَيْنَ وَلَدَيْهِ ،
وَرَأَى الْقَادِرُ بْنُ ذِي النُّونِ الْفُرْصَةَ مُوَاقِيَةً لِتَحْقِيقِ
أَمْنِيَّتِهِ ، فَزَحَفَ إِلَى بَلَنْسِيَّةَ ، يُؤَيِّدُهُ فِي زَحْفِهِ جَيْشُ
أَذْفُونَشَ ، وَخَشِيَ أَهْلَ بَلَنْسِيَّةَ مَغْبَةَ الْقِتَالِ ، فَسَلَّمُوا
الْمَدِينَةَ دُونَ حَرْبٍ ، وَعَاثَ جُنُودُ أَذْفُونَشَ فِي الْمَدِينَةِ
فَسَادًا ، وَاشْتَدَّ الْكَرْبُ بِالْمُسْلِمِينَ .

وَكَانَ الْأَمْرُ قَدْ اسْتَتَبَّ فِي الْمَغْرِبِ لِيُوسُفَ
ابْنِ تَاشَفِينَ ، أَمِيرِ الْمُرَابِطِينَ ، فَعَزَمَ أَنْ يَسِيرَ إِلَى

الأندلس نصرة لأمرائه ، وحماية للإسلام الذى
زعزعت النفرة والعداوة والبغضاء الواقعة بين
الأمراء أركانها ، وهددته بالزوال .

كان المرابطون يجتمعون أول أمرهم برباط ،
بصحراء مراكش ، يعبدون الله ، فاجتمع عليهم
أناس كثيرون ، وظهر أمر المرابطين ، واشتهروا
بدينهم وتقشفهم ، فأرسل مسلمو الأندلس إلى
أميرهم يوسف يستصرخونه ، فخف لنجدتهم ،
تأييدا للإسلام ، وتوطيدا لدعائمه .

وعبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، فخف
أذفونش للقاءه فى جموع لا تحصى من جنوده ،
والتقت جيوش يوسف وجيوش أذفونش فى
الزلاقة ، فانهزم جيش أذفونش ، وانتصر جيش
يوسف ، وانتعش ملوك الطوائف إلى حين .